المجاز الرديف

دكتور
حسن أمين مكيمن

المجاز الرديف نوع من الأساليب البلاغية التى لا تتمحض فى الحقيقة ولا فى المجاز ، وانما يكون لها طرفان من المعنى ، أحدهما نابع من المصطلح اللغوى للفظ ، والثانى مفهوم من تعلق معناه الحقيقى وارتباطه بمعنى آخر يردفه ويلازمه ، بحيث لاينفك المعنيان ، لأن المعنى العام - الذى يتطلبة المقام - منعقد على الطرفين جميعا دفعة واحدة وباعتبار واحد .

ومن البدهيات البلاغية أن اللفظ قد يستعمل فى معناه الذى وضع له فى اللغه ، بحيث يكون جسرا للمعنى المراد فى عبوره من فكر المتكلم إلى ذهن السامع على متن اللغه وإلف الاستعمال ، وحينئذ لايحتاج اللفظ إلى قرينة كاشفه لمعناه ، اذ اللفظ فى أسلوب الحقيقة قرينة معناه ورمزه ودليله . ولذا ترى المعنى واضحا محددا مفهوما ، وكأن اللفظ فى حقيقته اللغوية يتمثل طفولة اللغة ومدارجها الأولى ، حيث يكون المعنى مفهوما من ذات اللفظ ودلالته الاصطلاحية . والمقامات التى تقتضى هذا النوع من الأساليب هى الحالات المنضبطة والمحددة ، أو العلمية ، أو ما كان المخاطب فيها ذا مستوى عادى من التلقى والفهم ، وذلك أمر غالب فى الكلام ، وله مقاماته ومناسباته .

وقد يستعمل اللفظ فى معنى لم يوضع له فى اللغة أصلا ، لكنه يتعلق بمعناه اللغوى بعلاقة تجوز استعماله فيه ، تؤيدها قرينة ظاهر تصرف اللفظ عن ظاهر معناه ، وتقود الذهن وتنقله من المعنى الأصلى إلى المعنى المراد بغير عناء والتباس ، ويعرف ذلك باستعمال اللفظ استعمالا مجازيا .

ففى قوله تعالى "اهدنا الصراط المستقيم"[١] تجد لفظ

"الصراط" يدل فى اللغة على الطريق ، لكنه فى سياق الآية يدل على "الدين الحق" و"الصراط" لم يوضع فى اللغة لمعنى الدين ، لكن .. لما كان بين الدين والطريق من علاقة المشابهة فى أن كالامنهما يوصل الى الغاية المرجوة جاز أن يستعار لفظ "الصراط" من معناه ليفيد المعنى المقصود بطريق المجاز - والقرينة هنا عقلية ، هى استحالة أن يكون الطريق مطلبا غاليا يقصد ويرجى ، ويدعو الإنسان ربه أن يهديه إلى سلوكه ، ذلك لإن الطريق مبسوط ، وفى قدرة كل إنسان أن يسلكه ، ولكن الإيمان مسلك صعب ومطلب نفيس ، يحتاج الإنسان فيه إلى نور الله وهداه ، ومن أجله يتضرع المؤمن ويدعو ربه أن يهديه إليه.

ويقرر البلاغيون أن اللفظ قد يستعمل استعمالا لاهو من الحقيقة ، ولا هو من المجاز ، كما إذا سبق اللسان إلى اللفظ على سبيل الخطأ ، كأن تقول: قرأت حجرا . كنت تريد أن تقول: قرأت كتابا ، فسبق لسانك إلى لفظ "حجرا" . وقالوا إن اللفظ قبل الاستعمال ليس من الحقيقة ولا من المجاز[٢] ، وسماه السيوطى: الواسطة بين الحقيقة والمجاز ، قال: وهذا القسم غير موجود فى القرآن الكريم ، ويمكن أن يكون منه أوائل السور من "الحروف المقطعة" على القول بأنها للإشارة إلى الحروف التى يتركب منها الكلام. ثم ذكر من الوسائط: الأعلام ، واللفظ المستعمل فى المشاكله ، وعلق بقوله: والذى يظهر أنه مجاز والعلاقة المصاحبة" .[٣]

والقسمة العقلية تقتضى أن اللفظ قد يستعمل فى حقيقة معناه وفى مجازه استعمالا واحدا ، فيكون المعنى المراد معتمدا على جناحين هما: الحقيقة والمجاز ، لا ينطلق إلى مجاله إلابهما معا ، ويكون المعنى مركبا ، ومتراحبا ، يموج بالإيحاءات والأخلية.

ومع أن التصور العقلى فى استيفاء الأقسام ليس من مثيرات القول ، ولا من حركة الوجدان والشعور ، ولا من الأغراض المعتبرة فى متصرفات المعانى ، إلا أن هذا القسم - الذى هو استعمال اللفظ فى الحقيقة والمجاز - يرجع إلى أبعد من ذلك ، بل لا يغنى أسلوب آخر غناءه حين يتسع المعنى ، وتتكاثر إيحاءاته ، حتى أنه يفيض من الدلالة اللغوية الاصطلاحية إلى حيز المجاز وحماه.

والمشكل حينئذ فى القرينة ، هل تطلب وتتعين؟ أو تلغى وتترك؟ الجواب أننا أمام جانبين متعامدين على اللفظ الواحد ، أحدهما: جانب الدلالة على المعنى الحقيقى ، وهذا لايحتاج إلى قرينة ، لأن وظيفة القرينة أن تخصص اللفظ للمعنى المجازى بأن تبعده عن الدلالة على المعنى الحقيقى. والجانب الثانى هو الدلالة على المعنى المجازى ، وهذه الدلالة الثانية تتداخل مع المعنى الحقيقى وتبدأ منه ، ثم تظل تتسع وتتسع حتى تدخل حيز المعنى المجازى ، أو بمعنى آخر: فأن المعنى الحقيقى هو الطرف الأول فى الدلالة ، والمعنى المجازى هو [الطرف الثانى] والطرفان يمتزجان ليتكون منهما المعنى المراد ، أوله نبع الحقيقة وآخره مجرى المجاز.

ذلك ما قصدته باسم "المجاز الرديف" والترادف فى اللغة من الردف وهو ما تبع الشئ ، وكل شئ تبع شيئا فهو ردفه" وأنسب تعريف للمجاز الرديف هو "لفظ يجاذبه جانبا حقيقة ومجاز" وجانب الحقيقة فيه مقصود لذاته ، وجانب المجاز مقصود معه من إكمال المعنى ونمائه ، على أنه رديفه الذى لا ينفك عنه.[٤]

نمهد لعرض الفكرة وبسطها بآية كريمة لها أثرها فى سير البحث ، رأيت أن أطبق عليها ، لأنها أظهر وأجدر ألا تختلف فيها وجهات

النظر ، لا من ناحية الحقيقة ، ولا من ناحية المجاز.

قال تعالى "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا" [٥]
الآية الكريمة تحذر من أكل مال اليتيم ، وتؤكد أن من يعتدى على اليتيم سيمتلئ جوفه بالنيران يوم القيامة كما امتلأت بطنه مما اغتصبه من حقوقه فى الدنيا .

واذا تأملت قوله "يأكلون" لوجدت أنه فعل مضارع ، الماضى منه "أكل" من باب نصر . وفى معناه قال الخليل: الأكل معروف ، والأكلة: المرة الواحدة حتى تشبع ، والأكلة "بضم الهمزة" اللقمة الواحدة ، وهى أيضا: القرصة ، والإكلة - بكسرها الحالة التى يؤكل عليها ، كالجلسة. والأكل - بضمهما - ثمر النخل والشجر ، وكل مأكول أكل.

ومادة [أ-ك-ل] تعنى ازدراد الطعام ومضغه وبلعه ، هكذا فى مفهوم اللغه واصطلاحها. هذا المعنى اللغوى طرف أول فى المعنى المراد من قوله "يأكلون" فى الآية الكريمة. هو جزء من المعنى وليس كل المعنى ، وبالتأكيد: فإن المعنى المراد أعم وأشمل - من هذا المعنى اللغوى المحدود - ذلك لأن من يشرب -ظلما- -شيئا- من أشربة اليتامى كالعصير ونحوه داخل فى معنى [يأكلون أموال اليتامى] والذى يختلس شيئا من أموالهم ، سواء أكان مالا أم عقارا أم أرضا أم ثوبا أم غير ذلك داخل فى معنى الأكل أيضا ، والذى يشهد - زورا - على اليتامى ، بحيث يترتب على شهادتهم ضياع الحقوق عليهم ، أو انتقاصها ، أو صعوبة الحصول عليها داخل فى المعنى ، داخل فى الحكم والتحذير.

ومع أن هذه المعانى العدائية الوضيعة مفهومة من مجمل تعاليم الإسلام - قرآنا وسنة وسلوكا للمسلمين - إلا أن الآية الكريمة تشملها شمولا مباشرا وتسع الدلالة عليها ، حيث يكون المجاز الرديف مركز إشعاع لها.

إن الأكل فى اللغة لايشمل كل هذه المعانى ، مع أنها داخلة فى حكم أكل أموال اليتامى ظلما ، داخلة فى حكم التحذير واستحقاق العذاب ، ويقال عنها مجازا: إنها من أكل أموال اليتامى ظلما ، ولايمكن لنا أن نتصور المعنى المراد إذا انتزعناه من طرفى اللفظ بدءا من الحقيقة - وهى مفهوم اللغة - ونهاية بالمجاز - وهو المعنى الذى تعلق بالمفهوم اللغوى بعلاقة قوية.

وما دام المعنى قد نبع من الحقيقة واتسع حتى شمل المجاز ، فلا لزوم للقرينة ، ولا ضرورة لاستدعائها ، لأن المعنى ليس مرتكزا على المجاز المحض ، وانما هو رديف للحقيقة ، فضلا عن أن المعنى المراد لايكتمل إلا باجتماع الطرفين فيه.

أن أئمة البيان واللغويين والمفسرين تذوقوا ذلك ولمسوه ، ودلوا عليه ، ولكنهم لم يصرحوا باسمه. ففى هذه الآية الكريمة قال الجاحظ: وقد يقال لهم ذلك ، وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ، ولبسوا الحلل" ثم قال فى بيانه لاتساع الدلالة ورحابة المعنى وتعدد أطرافه "وجوزوا قولهم "أكل" وانما عض ، و"أكل" وإنما أحاله ، و"أكل" وإما أبطل عليه ، وجوزوا أيضا أن يقولوا : ذقت ماليس يطعم ، ثم طعمت بغير الطعام"[٦]

فالجاحظ - وهو من هو فى اللغة والأدب والبيان - نص على ذلك وقرره بعد تسليمه بأن المعنى اللغوى مراد فى الآية ، وقد صرح هنا بأن شرب الأنبذة ولبس الحلل ، من أكل أموال اليتامى ظلما ، وكلامه يشعر بأن ذلك كأكل أموالهم فى التعدى والحرمة واستحقاق العذاب يوم القيامة .

ومن الطريف أن الذى يأكل أموال اليتامى يجب أن يكون المعنى على الحقيقة فقط ، للتتاح له فرصة الأكل المجازى من الشرب والصرف والتبديد وغير ذلك ، أو أن يكون المعنى على المجاز فقط لتتاح له فرصة الأكل والأزدراد .

أما المجاز الرديف - أى الجمع بين طرفى المعنى - فلايحبه ولايريده أن يكون .
ثم فى قوله "أموال" عموم واتساع أيضا ، فالأموال جميع "مال" ومعناه هنا أى شئ يقدر بمال ، من طعام أو شراب ، أو نقد ، أو عقار أو غير ذلك مما يقوم بثمن . وأنت أذا سلطت العامل وهو قوله "يأكلون" على نوع مما شمله المعمول وليكن [الطعام] مثلا ، لا ستقام لك أسلوب الحقيقة ، والتقدير : يأكلون طعام اليتامى . فإذا سلطته على غيره [وليكن الشراب أو العقار] لكان الأكل مجازا عن الإنفاق أو التبديد .
فالأكل - إذن- مع المعمول الشامل يدل على الحقيقة والمجاز معا .

أما إذا سلطت مجاز الأكل على نوع من المعمول ، أو على المعمول الشامل لازددت إدراكا لجوانب عجيبة ينطوى عليها هذا التعبير الكريم .

وفى تحليل معنى هذه الآية يقول الدكتور محمد أبو موسى "ليس المراد النهى عن - أكل أموال اليتامى - فحسب ، وإنما النهى عن أن ينفق فيها الولى على نفسه أو غيره فى أى وجه من وجوه الإنفاق ، سواء أكان مأكلا ، أو مشربا ، أو مسكنا ، أو ملبسا ، ولكنه عبر عن ذلك بلفظ الأكل ، لأنه أزجر وأكف.

ووجه ذلك فيما نظن - أن أوجه الإنفاق الأخرى مثل الملبس والمسكن وغير ذلك ما لايشترك فى التصرف فيه الإنسان والحيوان . وإنما هى من متصرفات الإنسان خاصة ، أما الأكل فهو الصفة المشتركة بين الإنسان والحيوان . والفرق بين هذه الصفة المشتركة أن الحيوان يأكل ما يشاء مما أتيح له من غير تقييد بحق أو ملك ، أما الإنسان فلا يأكل إلا ما كان حقه أن يأكله من ملك أو هبة أو غير ذلك ، فإذا ما أكل من غير حق كان كالحيوان فى صفة الأكل ، يضع فى فمه وبطنه كل ما يتمكن منه غير ناظر إلى الحدود التى تحددها شرائع الإنسان.

والمفسرون يقولون: إنه عبر بالأكل عن التصرفات الأخرى ، لأنه أكثر وجوه الإنفاق - وهذا صحيح - ولايدفع أن يكون وراء التعبير تلك اللمحة التى تسم المتعدى بالحيوانية.

ودع هذا وانظر إلى الإضافة "أموال اليتامى" وكيف ألقت على الأموال ظلا من البؤس واليتم والمسكنة ، ثم تأمل ما وراء ذلك من التنفير منها ، والتزهيد فيها ، والتشنيع على هذا الأكل الذى يحشو أمعاءه حشوا ، وانظر إلى كلمة [ظلما] وما تشير إليه من خسة الأكل الذى يظلم اليتيم وهو فى حالة من الضعف والعجز وقلة الحيلة. ثم انظر إلى قوله "فى بطونهم" والأكل لايكون إلا فى البطن ، وكيف

زاد هذا القيد الصورة إيضاحا وتوكيدا"[٧] وفى الآية غير ذلك أسلوب القصر فى قوله "إنما يأكلون" والمجاز المرسل فى قوله "يأكلون نارا" والتوكيد ، للدلالة على شدة الغضب وقوة التهديد.

وفى قوله تعالى "ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم"[٨] نبه صاحب الإنصاف على لطائف فى المعنى ، فقال : وأهل البيان يقولون: النهى متى كان درجات فطريق البلاغة النهى عن أدناها تنبيها إلى الأعلى ، كقوله تعالى "ولاتقل لهما أف"[٩] واذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية وجدته - بباديء الرأى - مخالفا لها ، إذا أعلى درجات أكل مال اليتيم فى النهى أن يأكله وهو غنى عنه ، وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه ، فكان متقضى القانون المذكور أن ينهى عن أكل مال اليتيم وهو فقير إليه حتى يلزم نهى الغنى عنه بطريق الأولى ، وحينئذ فلابد من تمهيد أمر يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهى فى هذه الآية.

نقول: أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته ،ولا شك أن النهى عن الأدنى وان أفاد النهى عن الأعلى إلا أن للنهى عن الأعلى أيضا فائدة أخرى جليلة لا توخذ من النهى عن الأدنى ، وذلك أن المنهى كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر، والداعية إليه أبعد.

ولا شك أن المستقر فى النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى أقبح صور الأكل ، فخصص بالنهى تشنيعا على من يقع فيه ، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء دعاه ذلك إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقا ، فضيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم.

ولاتكاد هذه الفائدة تحصل لو خصص النهى بأكله مع الفقر ، إذ ليست الطباع فى هذه الصورة معينة على الاجتناب كإعانتها عليه فى الصورة الأولى ، ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل ، مع أن تناول مال اليتيم على أى وجه كان ، فنهى عنه- كان ذلك بالادخار أو بالتبخس ، أو ببذله فى لذة النكاح مثلا ، أوفى غير ذلك - إلا أن حكمة تخصيص النهى بالاكل أن العرب كانت تتذمم بالإكثار من الأكل ، وتعده بطالة من البهيمية ، وتعيب على من اتخذها ديدنه ، ولا كذلك سائر الملاذ ، فانهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدونه زينة الدنيا ، فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاذ خص النهى به حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف جرها ذلك إلى النفوز من صرف مال اليتيم فى سائر الملاذ أو غيرها أكلا ، أو غيره[١٠] "ومراده مما سبق أن ينبه إلى أن النهى إذا بدأ بالأدنى فى درجات المعنى لفائدة التنبيه على شموله للاعلى بطريق الأولى ، وإذا بدأ بالأعلى فلفائدة التدريب على الكف عن القبيح مطلقا ، فإن النفس يرق طبعها ، وتنفر من الوقوع فى القبيح ، ومراعاة هذه اللطائف تكاد الا توجد إلا فى القرآن الكريم ، ولا يعثر عليها إلا الحاذق الفطن ، المتبحر بها فى الألفاظ من إيجاء ورموز" .

على أنى أستطيع أن أقرر أن أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته واتسعت معانيه حتى تبدأ من الحقيقة وتصل إلى المجاز ، بحيث تكون الحقيقة والمجاز معا طرفين للفظ ، وأساسا يقوم عليه المعنى المقصود .

ولئن نظر البلاغيون إلى درجات المعنى وتصاعده من الأدنى إلى الأعلى لفائدة التنبيه على شموله للاعلى بطريق الأولى ، أو تنزله من الأعلى إلى الأدنى لفائدة التنفير من الوقوع فى القبيح ، فما أجدرنا أن

تحتفل أيضا برحابة المعنى ، وامتداد أطرافه من حقيقة إلى مجاز يردفها ، ويلازمها ، ولاينفك عنها فى الدلالة المزدوجة والإيحاءات المتراكة والإشارات الدافقة ·

وقد بان لنا فيما تقدم أن الحكم قائم على جميع ما يندرج تحت الأكل ، مما تواضعت عليه اللغة ، أو اتسعت له الدلالات ، ولا يمكن أن يقتصر المعنى على أحد الطرفين ، وإلا كان مبتورا ·

إنك لاتستطيع أن تثير ركاز البيان فى الآية إلا إذا حملتها على ذلك ·

وفى ضوء ماتقدم اقرأ قوله تعالى "لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقدم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين" [١١] المعنى قائم - والله أعلم - على أنه تعالى قد أثنى على أهل قباء لعنايتهم بالنظافة ، فقد كانوا يستبرئون من الغائط بالأحجار ، ثم يتبعونها بالماء ، وكانوا لاينامون على جنابة ·

"وقد روى الحسن رضى الله عنه أنهم كانوا يتطهرون من الذنوب بالتوبة[١٢]" هذا الأفق العالى فى النظافة والطهارة مكرمة عظيمة تضاف إلى مكرمات أهل قباء وأمجادهم ، وبهذا المستوى الطاهر أقاموا مسجد قباء على أسس التقوى من أول يوم ، فاستحقوا من الله التكريم والثناء ·

والطهارة فى سياق الآية معنى كبير، يشمل ماهو حسى ، وهو ما شهر عن أهل قباء وما شهد عليه تاريخهم ، والثانى هو ما ردفه وتعلق به بعلاقة - وهى - هنا المشابهة - فان التوبة تنفى الخطايا وتزيلها كما يزيل الماء أثر النجاسات·

وقد عقد النبى صلى الله عليه وسلم مشابهة صريحة بين الصلاة والاغتسال بالماء كل يوم خمس مرات فى إزالة الأدران.

ومثل ذلك قوله تعالى "وطهر بيتى للطائفين" [١٣] ومعلوم أن حقيقة الطهارة: إزالة الأنجاس والقاذورات ، كما قال تعالى "ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن" [١٤] وهذا طرف فى المعنى المراد ،والطرف الثانى هو: محاربة الضلال ، وإزالة الأصنام ومظاهر الشرك ، ومنع المشركين من الطواف حول البيت ، ومن مجموع الطرفين يتكون المعنى المقصود.وجانب الحقيقة فيه يرادبه أداء الفكرة أداء أوليا يصل إلى الذهن من أقرب طريق وأوضحة، وجانب المجاز فيه يوسع الفكرة ويظهر أبعادها ، ويلحق بها كل ما يشبهها أو يكون لازما أو ملزوما لها ، أو يكون عمقا من أعماقها ، وذلك تطور دلالى واتساع معنوى يطير بالخيال إلى أرحب الآفاق.

وفى الآية لطيفة أخرى تكمن فى فعل الأمر "طهر" فإن بناءه هكذا على صورة الأمر ، وإسناده إلى ضمير المخاطب يضفى على الفعل عموما فى الزمان والفاعل ، ومن مظاهر عمومه أنه كان أمرا لسيدنا إبراهيم عليه السلام فى زمانه ، ثم عبر الزمان ، وعم الأمر سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم فى زمانه ، ثم استمر بعدهما يعم كل مسلم الآن وفى المستقبل ، أي: هو لفظ حى ، يسير مع الزمان ، ويخاطب كل من يصلح للخطاب ويتوجه إليه الأمر من عباد الله.

ويزداد الأمر وضوحا عندما تقرأ قوله تعلى "ولهم فيها ازواج مطهرة"[١٥] هذه الآية الكريمة بشارة الله إلى عباده الذين آمنوا

وعملوا الصالحات ، وكانوا نافعين لأنفسهم ولمجتمعاتهم ، والبشرى هى أن لهم نعيم الجنة ولذائذها من أنهار وثمار وأزواج.

ومطهرة فى اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ ، لما تدل عليه الصيغة من إيقاع التطهير والعناية به واعداده على خير وجه ليكون تكريما حقا ومعنى الطهارة فى الآية مزيج من الحقيقة والمجاز الرديف.

فعن مجاهد قال أى: لا يبلن ، ولا يتغوطن ، ولا يلدن ، ولا يحضن ، ولايمنين ، ولا يبصقن "وفى مطهرة فخامة لصفة النساء وهى الإشعار بأن مطهرا طهرهن "[١٦]

وفى الكشاف "ويجوز-لمجيئه مطلقا- أن يدخل تحت الطهر من دنس الطباع ، وطبع الأخلاق الذى عليه نساء الدنيا مما تكتسبن بأنفسهن ، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشئ المفسدة ، ومن سائر عيوبهن ومثالبهن وخبثهن وكيدهن" .[١٧]

وقال الشيخ العز بن عبد السلام: وقد استعمله بعضهم فى المجاز والحقيقة جميعا ، فقال: مطهرات من المخاط والبصاق والأقذار والريب ومساوئ الأخلاق"[١٨] فقوله:"مطهرات من المخاط والبصاق والاقذار" يشير إلى الطهارة الحسية التى هى التنزه عن الأقذار والنجاسات الحسية، وقوله: مطهرات عن مساوئ الأخلاق" يشير إلى الطهارة المجازية ، وواضح أن المعنى العام مزيج منهما جميعا.

إن فيما أشار إليه العلماء ونصوا عليه دلالة قوية وواضحة على أنهم تذوقوا هذا الأسلوب ، وأدركوا أن الحقيقة جزء من الدلالة على المعنى فيه ، وأن المجاز الرديف هو الذى يتمم المعنى ، ولايمكن أن

اقرأ قوله تعالى "كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد" [١٩] قال ابن عباس: فرعون ذو الأوتاد ، ذو البناء المحكم ، وعنه أيضا وعن قتادة وعطاء أنه كانت له أتاد ، وملاعب يلعب له عليها . وقال الكلبى: كان يعذب الناس بالأوتاد ، فاذا غضب على أحد مده مستلقيا بين أربعة أوتاد فى الأرض ، وأرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت.

واضح أن معنى قوله"ذو الأوتاد" قائم على الحقيقة والمواضعة اللغوية ، ولكن:هل هذا كل المعنى؟ هو جزء من المعنى ، والدليل على ذلك أنا وجدنا بعض المفسرين يذهبون إلى أن المعنى: أى هو ذو الجنود الكثيرة الذين يتقوى بهم كما يتقوى البيت بالأوتاد . وبهذا المعنى الثانى - وهو مجازى - يكتمل المعنى العام وتظهر أبعاده المقصودة.

وفى حاشية الشهاب" والظاهر أنه شبه فرعون فى ثبات ملكه بذى بيت ثابت ، أقيم عموده ، وتثبتت أوتاده ، تشبيها مضمرا فى النفس ، على طريقه الاستعارة المكنية ، وأثبت له ما هو من خواصه تخييلا ، وهو قوله "ذو الأوتاد" [٢٠].

وواضح أن المعنى قائم على المجاز المحض. بناء على تشبيه فرعون بذى بيت ثابت ، وهنا نقول: لماذا المشابهة؟ ألم يكن فرعون صاحب بيوت ثابتة؟ ألم تكن له أوتاد وأرسان وملاعب؟ كيف يشبه فرعون الملك بصاحب بيت ثابت؟

إن دلالة الحال والمقام وسياق الكلام وما عرف من قصة فرعون ، كل ذلك يثبت أنه كان لفرعون قصور فخمة ، وأبنية ضخمة ، تقوم

على عمد وأوتاد ، وكان له أيضا جنود وسلاح ، يثبت بهم ملكه ، ويتخذ من هذا وذاك مظهرا للملك والقوة، والعز والسلطان ، فلم يحترز بكل ذلك من عذاب الله حين نزل به بسبب كفره وعناده.

هذا هو المعنى العام ، وقوله "وفرعون ذو الأوتاد" شامل للحقيقة ومجازها الرديف ، وهما طرفان للمعنى المراد وقد تعددت وجوه الإفادة بهما ، فاتسع المعنى وكثرت إيحاءاته ونمت فوائده.

واذ قال البلاغيون إن الكلام إنما هو مبنى على الفائدة فى حقيقتة ومجازه فإن الفائدة هنا مزدوجة ، شطرها من الحقيقة وشطرها من المجاز وأن بعضها يسرى إلى النفس من العقل ، وبعضها يداخلها من الوجدان ، فضلا عن أن ذلك التعبير يعمد إلى استغلال طاقات اللغة وتوظيفها ليناجى بها العقل والحواس والوجدان.

وهكذا يكون فى بناء معنى على معنى وتداخله فيه من الدقة والحذر ما يحتاج إلى فضل تأمل لإدراك تلك الآزدواجية التى تجعل المعنى مجدولا ، قد دخل بعضه فى بعض ، والتف أوله على آخره.

واقرأ قوله تعالى "وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد"[٢١] الضمير فى قوله "وامرأته" يعود على أبى لهب ، الذى تب الله يده فى الدنيا ويتبه فى نار جهنم فى الآخرة ، وأمراته هى أم جميل ، توعدها الله أيضا بالعذاب فى الآخره ، جزاء لأفعالها الشنيعة ضد الأسلام والمسلمين.

قيل: كانت تحمل حزم الشوك والحسك فتنثرهما بالليل فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٢٢] قال قتادة: كانت تعير رسول

الله صلى الله عليه وسلم بالفقر ، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل ، أو كانت تحمل العضاة والشوك فتطرحه بالليل فى طريق النبى وأصحابه" أو: حمالة الحطب: فى نار جهنم"[٢٣] وعلى ذلك فحمل الحطب أسلوب جرى على حقيقية ، ومعناه: الإخبار عنها بذلك مع تعييرها وتهديدها.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى: كانت تمشى بالنميمة بين الناس ، تقول العرب: فلان يحطب على فلان: إذا ورش عليه"[٢٤] كما قال:

إن بنى الأدرم حمالو الحطـــــب
هم الوشاة فى الرضا وفى الغضب

فحمل الحطب مستعار للنميمة ، وهى استعارة لطيفة مشهورة"[٢٥]
وقال سعيد بن جبير: حمالة الحطب: أى حمالة الخطايا والذنوب. فالحطب مستعار لذلك لأن كلا منهما مبدأ للإحراق.

واضح أن المعنى العام قائم على ما يحمله قوله "حمالة الحطب" من المعنى الحقيقى والمعنى المجازى ، وأن جرمها كان كبيرا حينما جمعت هذين الأمرين الخسيسين ، ووراء العبارة كثير من الإيحاءات التى ترسم ظلال المعنى الكئيب ، منها: أنها كانت تتصف بما تراه عيبا ونقيصة ، وأن النمية هى وقود الخلافات والفتن ، فإذا اشتعلت أتت على كل شئ ولا تنتج إلا رمادا تذروه الرياح.

وظاهرة ازدواج المعنى فى القران لا تتحقيق فى قليل من الأمثلة ، بل هى من الكثرة بحيث تنهض أن تكون بابا قائما بذاته ، ومن

أعجب أمثلتها قوله تعالى "يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها"[٢٦]

الأفعال الواردة فى هذه الآية كلها عامة ، فقوله"يعلم" يشمل حقيقة العلم وهى المعرفة وإدراك المعلوم وانكشافه ، ويشمل مجازه من الرؤية والسماع والقرب والإحاطة وما يستلزمه العلم وما يشبهه ، وقوله "مايلج فى الأرض" "ما" اسم موصول بمعنى الذى و"يلج" يشمل ولوج الكائنات من الدواب وغيرها ، ويشمل ولوج الأحوال وشئون التدبير وغيرهما ، وقوله "وما يخرج منها" يعم خروج النبات والأعمال والنوايا. وقوله وما ينزل من السماء" يعنى: نزول المطر والأرزاق والقرآن وغير ذلك مما يعلمه الله وقوله "وما يعرج فيها" لعروج الملائكة والأعمال.

فكل فعل فى الآية يتضمن المعنى الحقيقى والمعنى المجازى فى نفس الوقت ، بحيث يكون المعنى العام مزيجا منهما معا.

وأحيلك على روضة القرآن اليانعة ، لتقرأ قوله تعالى "يأيها الذين أمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم"[٢٧] وقوله" والسماء رفعها"[٢٨] وقوله ألم يجدك يتيما فآوى"[٢٩] وقوله "ألم نشرح لك صدرك"[٣٠] وبقليل من التأمل تدرك ما تقرر فى الأمثلة السابقة.

وفى جميع الأمثلة السابقة ، فإن المجاز الرديف لايتطلب قرينة ، لأنه ليس مجازا محضا فيحتاج إلى قرينة تبعده عن الحقيقة ، وتصرفه عن ظاهر اللفظ ، بل إنه ردف الحقيقة وشاركها فى المعنى ، فيناسبه أن يزداد لصوقا بها وقربا منها ، واتحادا معها.

وليس عجيبا أن يدل اللفظ على الحقيقة والمجاز معا ، لأن ازدواج الدلالة فيه تعنى زيادة المعنى المجازى على المعنى الحقيقى وهما متجانسان ، وأحدهما حسى والآخر معنوى.

وقد رأينا فى استعمالات اللغة أن من الألفاظ ما يدل على معنى معين ، أو على نقيضه مثل لفظ "القرء" فإن يدل على الطهر أو على الحيض ، وهذا يعنى أنه يدل على واحد من المعنيين ، وأنه محتاج إلى القرينة التى تقربه من أحدَ المعنيين وتخلصه من الآخر.

تحقيق ذلك أن الواضع عينه للدلالة بنفسه على معنى الطهر - وكذا بنفس الدرجة - للدلالة على معنى الحيض . ودلالة اللفظ على معنى دون معنى لابد لها من مخصص لتساوى نسبته إلى جميع المعانى ، أى أن الوضع يخصص اللفظ للمعنيين ، والمتكلم يخصصه للدلالة على هذا دون ذاك.

ففى قوله تعالى "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"[٣١] قال أهل الكوفة: القروء هى الحيض ، وهو قول عمر وعلى وابن مسعود ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدى ، وبهذا المعنى ورد الشعر فى قول القائل:

[يارب ذى ضغن على فارض له قرو، كقرو، الحائض]

يعنى أنه طعنه فكان له دم كدم الحائض ، قيل إن هذا المعنى مأخوذ من قرأ الماء فى الحوض ، أى جمعه ، سموه بذلك لاجتماع الدم فى الرحم .

وقال أهل الحجاز: القروء هى الأطهار ، وهو قول عائشة وابن

عمر وزيد بن ثابت والزهرى وأبان بن عثمان والشافعى · ويستأنسون لذلك بتأنيث العدد لأن المعدود مذكر وهو الطهر ، وقد سموه بذلك· لاجتماع الدم فى البدن لا فى الرحم ، أى أن الرحم يجمع الدم وقت الحيض ، والجسم يجمعه وقت الطهر·

وقيل: القرء هو الخروج والانتقال ، إما من طهر إلى حيض أو من حيض إلى طهر ، فتكون دلالته على الطهر والحيض جميعا ، فيصير الاسم مشتركا · وتقدير الكلام: فعدتهمن ثلاثة انتقالات· أولها الانتقال من الطهر الذى وقع فيه الطلاق ليقع الطلاق سنيا ، أى: فى الطهر - ثانيها الانتقال من الحيض الذى يلى الطهر - وثالثها الانتقال من الطهر إلى الحيض·

نقول: إذا جمع اللفظ بين معينيين متضادين فى سياق واحد ، فأى عجب أن يجمع بين معنين متناسبين يكمل أحدهما الآخر ، فيتسع المعنى وتتضاعف إيحاءاته وتتكاثر إشعاعاته·

ومما فى الآية السابقة من بديع التعبير أن أسلوب الآية خبر بمعنى الأمر ، وأصل الكلام: وليتربص المطلقات ، وإخراج الإمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر واشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله فكأنهن ، امتثلن الأمر بالتربص ، فأخبر عن الموجودات· وبناؤه على المبتدأ ·' زاده أيضا فضل تأكيد ، ولو قيل: ويتربص المطلقات ، لم يكن بتلك الوكادة ، وفى ذكر الأنفس تهييج للمطلقات على التربص ، وزيادة بعث ، لأن فيه ما يستنكف منه، فيحملهن على أن يتربصن وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص" [٣٢]

وقد رأينا فى أسلوب الكناية مجالا رحبا فى ازدواج الدلالة واتساع المعانى. فالكناية مصدر قولهم: كينت به عن كذا أكنى: من باب ضرب ، وكنوت أكنو: من باب نصر ، أى : تكلمت بما يستدل به عليه ، أو تكلمت به وأردت غيره ، أو تكلمت بلفظ يجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، والمعنى الأخير نص فى الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ واحد.[٣٣]

وعبد القاهر يعرف الكناية بقوله "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره بلفظه الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومى به إليه ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد ، يريدون: طول القامة"[٣٤] فلم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى أخر من شأنه أن يردفه فى الوجود: وان يكون إذا كان ، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد"

وعرفها الخطيب القزوينى بقوله: هى لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه"[٣٥] هذا ما قالوه فى تعريف الكناية ، وبصرف النظر عمارآه البلاغيون فيها من كونها من أساليب الحقيقة[٣٦] أو من أساليب المجاز[٣٧] أو أنها واسطة بين الحقيقة والمجاز[٣٨] أو أنها قد تكون حقيقة وقد تكون مجازا"[٣٩]

نتجاوز ذلك إلى ما هو أهم بأن نتأمل قول الإمام عبد القاهر "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومى به إليه" وسنجد أنه يشير إلى أن المعنى المراد لا يفهم من اللفظ الموضوع له أى: من دلالته اللغوية ، ولكنه يفهم المعنى الرديف ،

ونستأنى بأقوال البلاغيين فى تقرير المسألة ، فقد عرفوا الكناية بأنها لفظ يجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، وقالوا أيضا: هى لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى ، وقد رأي السكاكى أن الكناية هى لفظ استعمل فى معناه وغير معناه معا" كما سنشير إليه فى موضعه:

معنى ذلك أن الكناية لفظ له جانبان: جانب يتعلق بالمعنى الأصلى الذى هو مدلول اللغة ، وجانب يتعلق بلازم المعنى ، مع جواز اجتماعهما معا ، وبعبارة أخرى: إن الكناية تجمع الحقيقة والمجاز فى الحين الواحد ، ويتماوج فيها المعنى بين الحقيقة والمجاز ، وإن المعنى المراد بالكناية مترامى الأطراف يبدأ من الدلالة اللغوية إلى أن يصل إلى لازم المعنى.

مع التسليم بأن من صور الكناية ما يطوى فيها المعنى الأصلى ، فلا يبقى إلا لازم المعنى ، فيتعلق به غرض الكلام ، كما إذا كنيت عن كرم صديقك بقولك: هو كثير الرماد. مع أن هذا الصديق لم يستعمل وقود الحطب فى حياته ، وقديكون المعنى قائما من أول الأمر على المعنى الكنائى كقولهم: المجد بين ثوبيك والكرم ملء برديك. أى أنه- ليس المراد بقولهم فى تعريف الكناية "مع جواز إرادة المعنى الحقيقى" أن كل مثال يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقى ، بل المراد جواز إرادة المعنى الحقيقى بالنسبة لأصل الكناية ومعظم أمثلتها ، أما الأمثلة التى طرأ عليها ما يمس المعنى الأصلى فإن المعنى الكنائى ينفرد بالدلالة على المراد.

الكناية مجالها واسع ، فهى تضم فى أعطافها-فضلا عما تقدم-التعبير الذى يترك ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ، ويعمل فيها

الخيال ، فيتشعب المعنى ويتسع ، ويزيد بالايجاء من دلالة الكلام. وبهذا يكون التعبير بالكنايه أبلغ ، وأوقع فى النفس ، وأكثر دقة فى الدلالة على الغرض المقصود[٤٠].

وقد رأينا فى أسلوب "الاستخدام" شيئا من رحابة المعنى وازدواجه ، الاستخدام مأخوذ من استخدمه بمعنى: استوهبه خادما ، ومناسبته للمعنى البلاغى أن المعنى يطلب تابعا له ، فيجعل المتكلم المعنى الآخر تابعا له فى الإرادة مقام إرجاع الضمير به"[٤١]
والاستخدام فى اصطلاح البلغاء هو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ، ثم يراد بضميره معناه الأخر ، أو أن يراد بأحد ضميريه أحد المعنيين ثم يراد بالضمير الأخر معناه الأخر مثال ذلك قول

الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قــوم
رعيناه وأن كانوا غضابـــــا.

يفتخر الشاعر بأنه من السادة الأقوياء الذين يحمون الكلأ والماء ، ولو رغما عن أصحابهما فلا يستطيعون التعرض لهم ولا يقدر أحد على الاعتراض أومنعهم مما يريدون.

ولفظ "السماء" الوارد فى البيت معناه فى اللغة: سقف كل شئ وكل بيت ، وسماء كل شئ أعلاه ، قال الزجاج: السماء فى اللغة يقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو ، وكل سقف فهو سماء ، ومن هذا قيل للسحاب: السماء ، لانها عالية"[٤٢]
والسحاب بخار ماء متجمع فى حيز واحد فى جهة من السماء. فقوله: إذا نزل "السماء" بمعنى: إذا نزل الغيث، وهذا معنى لغوى للسماء.

وللسماء معنى آخر وهو النبات ، وهو معنى مجازى ، لأن النبات مسبب عن الماء ، وقد أعاد الشاعر عليها الضمير المنصوب فى قوله "رعيناه" بمعنى النبات.

تأمل المعنى ، تجده مكونا من الأمرين جميعا ، حيث استعمل لفظ السماء بمعنى الغيث وأعاد الضمير عليها بمعنى النبات ، وهذان الأمران طرفا المعنى المقصود ، والتقدير: إذا نزل المطر بأرض قوم فنبت نباته رعيناه ، أى: نحن قادرون على الإغاره على حمى كل قبيلة دون أن تتجرأ على مقاومتنا ، ونظل فى المكان آمنين حتى ينمو الكلأ فترعاه أنعامنا.

والمثال الثانى للاستخدام قول البحترى:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم
شبوه بين جوانحى وضلوعى

يدعو بالسقيا لهذا المكان الذى ينبت الغضا ، لأن أحبابه فيه ، وقد اشتعل نار الهوى فى قلبه حبا وهياما.

فقوله "الغضا" معناه: المكان الذى يسكن ، والضمير المجرور فى قوله: "الساكنيه" راجع إليه بهذا المعنى. أما الضمير المنصوب فى قوله "شبوه" فيرجع إلى الغضا بمعنى النار ، لأن النار تحل فيه "فالضمير الأول راجع إلى الغضا بمعنى والثانى لحقيقية [٤٣] ، والمعنى العام شامل لهما وهما طرفان فيه.

لايمكن فى بعض صور الاستخدام أن تجد فاصلا بين الحقيقة والمجاز فى المعنى المراد ، وحقيقة الاستخدام أن يوجد فيه أكثر من معنى ،

يتحدد أحدها ثم يعود الضمير عليه بالمعنى الأخر ، أو يعود أحد لضمائر على اللفظ بمعنى ، ثم يعود عليه ضمير أخر بمعنى أخر.

وقد صرح البلاغيون فى الاستخدام بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فقالوا فى تعريفه: هو "أن يريد بلفظ له معنيان - حقيقيان - أو مجازيان - أو مختلفان - أو أكثر - أحدهما ، ثم يراد بضميره الآخر المعنى الآخر ، فقولهم: أو"مختلفان" يعنى أن اللفظ قد يدل على معنى وفق دلالة اللغة ، وقد يدل على معنى مجازى أيضا ، يبرزه ضمير يعود عليه من بين ثنايا الكلام ، والمعنى العام منتزع منهما معا.

وهذا من الطرق البديعة التى تبلغ بالحقيقة وبالمجاز الذروة العليا ، حينما تساق الكلمة مساق الحقيقة الممتزجة بالمجاز ، فلاهى بالحقيقة المحضة ، ولا هى بالمجاز المحض ، وحين تتأمل الكلام وتتروى فيه تجد طرفيه وإن كانا كالهضاب الكبيرة إلا أنهما يتداخلان ويتآزران فى المعنى العام ، مما يجعل الكلام أغزر معنى ، وأكثر رونقا ، وأحسن ديباجة ، وأعذب مذاقا ، وأشد تأثيرا.

هذا الاسلوب الفريد الذى يتحمل اللفظ فيه جانبى الحقيقة والمجاز ، ويجمع بين دلالتيهما فى السياق الواحد ، فيكون حقيقة مجازا معا كما رأينا فى الأمثلة السابقة ، وكما توثق هذا الاتجاه بما قرره البلاغون بأن اللغة تسمح بازدواج الدلالة واتساع المعنى كما فى أسلوب الكناية والاستخدام وما ستكشف عنه الدراسات فى المستقبل.

هذا الأسلوب الذى أسميته [المجاز الرديف] ظاهرة أدبية بلاغية

آن الأوان أن تتناولها الدراسات البلاغية تناولا يفصل القول فى تحديد معناها ، واستقراء أمثلتها ، ودراستها للتعرف على المعانى التى تطرقت إليها ،مع بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين الدلالات الكامنة فى ألفاظها ، وبين هذا الأسلوب وبين أسلوبى الحقيقة والمجاز المحضين.

ودراسة هذه الظاهرة بتوسع وافاضة سوف تهدى إلى نتائج طيبة فى الدراسات البلاغية ، فلكل أسلوب خصوصية فى الكلام ، وفى متصرفات المعانى ، واتجاهاتها ، وفى سوانح الفكر والوجدان ، كما أنه من المؤكد أن فى بناء المعنى على المعنى وتداخلهما من الدقة والحذر ما يحتاج إلى إعمال الذهن ، وترتيب الفكر ، ومداومة النظر والدراسة .

لا أعرف أن هذه الظاهرة قد درست فى الأطوار الأولى من الدراسات البلاغية ، أما فى القرن السابع الهجرى أو قبله بقليل ، فقد رأينا بعض البلاغيين يشير اليها إشارات مقتضبة ، لا تؤدى إلى كشف حقيقها ، فالسكاكى يذكر فى المفتاح قوله "فإذا استعملت الكلمة: إماأن يراد معناها وحده ، أو غير معناها وحده ، أو معناها وغير معناها معا، والأول الحقيقة ، والثانى المجاز ، والثالث الكناية" .

هذا كلام صريح له وزن وتقدير ، نقلته بنصه لأن لى فيه مطالب وشواهد:

الأول: هذا كلام صريح فى أن اللفظ قديستعمل فى معناه الموضوع له فى اللغة -على سبيل الحقيقة ، أو فى غير معناه الموضوع له-على سبيل المجاز ، وهذا كلام صحيح لغة واستعمالا ، ولا اعتراض لأحد عليه. أما القسم الثالث فى كلام السكاكى وهو "ماستعملت فيه الكلمة فى معناها وغير معناها معا فقد أطلق عليه السكاكى اسم الكناية .

الثانى: لاحظ السكاكى أن القسم الثالث منطبق على الكناية ، لأنها "لفظ يراد به لازم معناه ،مع جواز إرادة معناه الأصلى ، قنصى على الكلمة المستعملة فى معناها وغير معناها معا" ولا خلاف معه فيما ذهب إليه ، لكنى أقول: إنه سكت عن الكلمة التى استعملت فى معناها وغير معناها معا، بعلاقة أخرى غير علاقة اللزوم ، كعلاقة المشابهة مثلا.

الثالث: سكت السكاكى عن ذلك ، وظاهر كلامه يشمله ، لأن العلاقة ليست محصورة فى اللزوم ، انما هى أعم من ذلك. ولو أنه قال: والثالث الكناية وغيرها لأصاب الحقيقة وفتح باب الدراسات البلاغية فى هذا الأسلوب الذى يتناغم بتضاعيف المعانى وازدواج الدلالات.

وليس فى وسع السكاكى ولا فى وسع غيره أن يجعل العلاقة خاصة باللزوم فقط ومع ذلك ، فهذا الاشارة هى مفتاح الدراسات فى هذا الاسلوب ، إلا انها لم تجد الاهتمام الكافى من البلاغيين.

وقد اكتفى الشيخ العز ابن عبد السلام "بالاشارة" إلى أن من العلماء من رفض ، وأن منهم من أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز فى كلمة واحدة"[٤٤] وقد عرض بعض الأمثلة ، فقال:وذلك كقوله تعالى "أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"[٤٥] فلعنة الله: إبعاده ، ولعنة الملائكة والناس دعاؤهم بالإبعاد ، وقد جمعهما فى لفظة واحدة. ثم قال: ومن لا يرى الجمع بين الحقيقة والمجاز يقدر: أولئك عليهم لعنة الله ، ولعنة الملائكة ، فيكون من مجاز الحذف" وعلى هذا النحو يستعرض عشرة أمثلة من القرآن الكريم"

أما الدكتور عبد العظيم المطعنى فقد قدم فى كتابه القيم "المجاز" عرضا ممتعا لمسيرة المجاز ، فى نشأته ، وتطوره ، والقائلين به والمانعين له فى اللغة والقرآن الكريم من البيانيين والأصوليين . وقد أشار "عرضا" إلى موضوعنا بقوله "ومن المسائل المدروسة عند مجوزى المجاز من مختلف الطوائف: مسالة: هل تجتمع الحقيقة والمجاز فى محل واحد؟ فالبيانيون لايعرف بينهم خلاف فى منع هذا الاجتماع ، أما الاصوليون فعلى فرقتين: فرقة منعت الجمع بينهما-وهو الصحيح- وفرقة جوزت الجمع بينهما ، وهذا مناف للواقع ، إلا اذا اختلف الحمل على أى منهما" وكثير من الأصوليين يعزون جواز الجمع بينهما للامام الشافعى حيث ذهب فى قوله تعالى "أو لا مستم النساء"[٤٦] إلى أن اللمس حقيقة فى الجس ، مجاز فى الجماع" .

ويستدل مجوزو الجمع بقوله تعالى "إن الله وملائكة يصلون على النبى"[٤٧] فالصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة الدعاء ، نقل هذا العز بن عبد السلام ، ورده بأن فى الكلام حذفا ، تقديره: إن الله يصلى ، وملائكته يصلون ، وعلى هذا فلا جمع"[٤٨]

قوله "فالبلاغيون لايعرف بينهم خلاف فى منع هذا الاجتماع" أرهقنى كثيرا فى تحقيق مضمونه ، ولم أصل عند البلاغيين إلى إجماع" أو ما يشبه الإجماع على المنع ، بل إنى لمست فى تعليقاتهم وشروحهم ما يرشد إلى المسمى والمضمون ، دون تسمية هذا الأسلوب باسم يحدد معناه ويجمع أمثلته ، وتلك ظاهرة طبيعية فى الدراسات البلاغية وغيرها ، فإن المصطلح لايظهر إلى الوجود إلا بعد أن تثار دراسات ، وتنشأ أفكار حول ظاهرة معنية ، ويتناول العلماء أمثلتها ومضمونها ومعناها ، إلى أن يوفق أحدهم إلى وضع مصطلح مناسب عليها

يتطابق فيه اسمها مع مسماها ، لأن الشئ إنما يسمى بعد أن يكون.

وقد رأينا فيما سبق من أساليب الكناية والاستخدام ، إشارات ومحاولات ونصوص تؤيد ما أذهب إليه.

أما الأصوليون والفقهاء ، فمما هو مشهور عن الامام الشافعى وأصحابه وإمام الحرمين ، أنهم يجوزون الجمع بين الحقيقة والمجاز فى اللفظ الواحد دون أى تحفظ وفى تطبيقاتهم وتطبيقات غيرهم -وهم كثير-مايفيد أنهم اعتبروا اتساع المعنى فى بعض الأحكام الشرعية.

فقد حكم الإمام أبو حنيفة على شخص حلف ألا يأكل من هذا الحنطة ثم أكل منها بأنه يحنث فى يمينه ، إذا أكل من عين الحنطة ، أما إذا أكل مما يصنع منها فلا يحنث ويرى صاحباه: أبو يوسف ومحمد أنه يحنث أيضا لو أكل مما يتخذ من هذه الحنطة كالهرية ونحوها. ويلزم على مذهب الصاحبين الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ واحد ، لأن الأكل من أصل الحنطة هو ما تتناوله الألفاظ على سبيل الوضع اللغوى ، والأكل مما يتخذ منها مجاز"[٤٩]

ومن الأمثلة كذلك من حلف ألايضع قدمه فى دار فلان ، فعلى مذهب الامام يحنث إذا دخل حافيا ، أما إذا حمل وأدخل فلا ، وعندهما يقع اليمين مطلقا ، لأن حقيقة القدم مهجورة ، والمجاز هو المعمول به ، ووضع القدم هنا محمول على الدخول بأى وجه كان"[٥٠]

ولفظ "النكاح" لما تردد فيه الأصوليون والفقهاء هل هو حقيقة ى العقد مجاز فى الوطء أو العكس؟ ترتب على ذلك اختلاف فى حكم الفقهى المترتب على قوله تعالى "ولا تنكحوا مانكم

أباؤكم" [٥٢]

فمن قال: إن النكاح حقيقة فى الوطء مجاز فى العقد قال: ان مزنية الأب تحرم على الابن ، لأن معنى النكاح: الوطء-شرعياكان أم - سفاحا - وهو قول أبى حنيفة ، ومن قال إن النكاح حقيقة فى العقد مجاز فى الوطء قال إن عقد الأب على امرأة يحرمها على الابن.

حتى الذين أنكووا المجاز عموما لم يستطيعوا أن يدمجوه فى الحقيقة ، أو يتهربوا من ذكره فى حر كلامهم ، وذلك فى قوله تعالى "وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان" [٥٣] الدعاء فى اللغه النداء ، دعا يدعو دعوا ودعاء: نادى. والاسم: الدعوة. كقوله تعالى "ادع لنا ربك" [٥٤] المعنى: سل لنا ربك. ويطلق الدعاء على العبادة تجوزا. كقوله تعالى "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى" [٥٥] أى يصلون الصلوات الخمس ، والصلاة عبادة ومسألة.

والإمام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم يقرران أن استجابة دعاء العبادة تكون حاصلة بالإثابة عليها ، ودعاء المسألة تكون استجابته بأعطاء الداعى مطلوبه ، وأن كلا النوعيين يلازم الآخر ، ويتضمنه.

وقد أفاض الشيخ فى بيان ذلك ، وقرر بتأكيد واثق أن المعنى العام للآية الكريمة يشمل الدعاء بالمعنيين ، يقول "فعلم أن النوعين متلازمان ، يعنى دعاء المسألة ودعاء العبادة ، فكل دعاء مسألة مستلزم لدعاء العبادة ، وبالعكس ، وعلى هذا فقوله تعالى "أجيب دعوة الداع إذا دعان" يتناول نوعى الدعاء ، قيل: أعطيه إذا سألنى ،

وقيل: أشيبه إذا عبدني ، والقولان متلازمان"[٥٦] وواضح أن أحدهما يجرى على الحقيقة ، والثانى على المجاز ، وأن لفظ الدعاء ينفث بسحر البيان اذ يتحمل معنيين يرتبط ثانيهما بأولهما .

وبعد فإن هذا البحث فكرة وجيزة لموضوع المجاز الرديف ، مع التحليل لبعض أمثلته ، تناولتها مسترشدا بما فهمته من إشارات البيانيين وموافقات الأصوليين ، وهى إشارات قيمة ، ولو أحسنا تأملها لأضاءت لنا آفاقا جديدة ، قيمة ومفيدة .

وقد بان لى أن "المجاز الرديف" نوع من الأساليب التى ينسكب فى أعطافها أنواع من المعانى المتناسبة ، الجامعة للحقيقة والمجاز ، أى أنها تخاطب العقل وتثير الوجدان وتشيع حول العبارة كثيرا من الإيحاءات والأخلية . واذا دل هذا الاسلوب على ذلك فإنه لايحمل أدنى شبهة من ناحية اللغة أو العقيدة ، لأنه لايتصور اجتماع المعنيين فيه إلا إذا كان كل منها على حدة بعيد عن دائرة الحرج فى اللغة والدين - راجع الأمثلة المذكورة يظهر لك ما أقصده .

ولا أشك أن تحرج البلاغيين من فكرة اجتماع الحقيقة والمجاز راجع لى استشكالهم فى القرينة . يقولون: كيف يكون المجاز خروجا على المواضعة اللغوية بقرينة تصرف اللفظ عن ظاهر عن معناه ، وفى نفس الوقت يكون المعنى الأصلى مرادا؟

والجواب على ذلك أن القرينة لازمة فى المجاز المحض ، الذى يراد به المعنى الخارج عن طوق اللغة ، أما المجاز الرديف ، فليس مجازا محضا ، انه هو معنى واسع ، يبدأ من الحقيقة ، ويتسع من حولها بلين انفصال عنها - حتى يدخل فى حدود المجاز ، فيتعانق المعنيا

على وجه اللفظ المستعمل ، ونصفهما حقيقة ونصفهما مجاز فلا داعى القرينة ·

ويقولون: إن اللفظ إنما يكون حقيقة إذا استعمل فى معناه ، وانما يكون مجازا إذا تجوز به عن مقتضى الوضع ، وتخيل الجمع بين الحقيقة والمجاز إنما هو كمحاولة الجميع بين النقيضين·

والجواب على ذلك أن المجاز الرديف هو معنى يلائم المعنى الحقيقى ويمتد معه إلى غاية واحدة ، فلا تناقض· ومع ذلك فإن اللغة لاتستنكر أن يدل اللفظ على معنيين متناقضين حقيقة كما فى الأضداد·

وفكرة المجاز الرديف مطروحة للبحث والدراسة ، فتناولها معى "وقل رب زدنى علما" ·

د / حسن أمين مكيمر
٢٢ من رجب ١٤٠٩.
٢٨من فبراير ١٩٨٩

المراجع

١- الاتقان فى علوم القرآن - السيوطى - دار إحياء التراث - القاهرة.

٢- أساس البلاغة - الزمخشرى - دار المعرفه بيروت.

٣- الاشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز - العز بن عبد السلام- دار الحديث القاهرة.

٤- أصول فخر الاسلام البزدوى - صبيح القاهرة.

٥- الأطول - العصام - الآستانه.

٦- البرهان فى أصول الفقه - إمام الحرمين ت د/ عبد العظيم الديب.

٧- تفسير أبى السعود - إرشاد العقل - دار المصحف.

٨- تفسير الزمخشرى - الكشاف - دار الفكر بيروت.

٩- حاشية الإنبابى على الصبان - الأميرية القاهرة.

١٠- حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى - بولاق - القاهرة.

١١- الحقيقة والمجاز - د/ على العمارى.

١٢- الرسالة البيانية - الشيخ الصبان - الأميرية.

١٣- كنايات الأدباء - ابو العباس احمد الجرجانى - الخابخى.

١٤- المجاز فى اللغة والقرآن الكريم - د/ عبد العظيم المطعنى - وهبه القاهرة.

١٥- مفتاح العلوم - السكاكى - الحلبى - القاهرة.

١٦- المفردات - الراغب - الحلبى القاهرة.

١٧- المطول - السعد الآستانه.

الهوامش

١- سورة الفاتحة٦
٢- الأتقان ٢/٤١
٣- المصدر السابق
٤- ينظر لسان العرب والقاموس المحيط
٥- سورة النساء١٠
٦- الحيوان ٥/١٠٩
٧- الاعجاز البلاغى كما تصوره رسالة إعجاز القرآن للخطابى ص٨
-بحث- د/محمد أبو موس
٨- سورة النساء٢
٩- سورة الاسراء٢٣
١٠- تفسير الكشاف ١/٤٩٥ ، ٤٩٦
١١- سورة التوبة١٠٨
١٢- ينظر تفسير الكشاف ٢/٢١٥ وتفسير القرطبى ٤١٠١
١٣- سورة الحج ٢٦
١٤- سورة البقرة ٢٢٢
١٥- سورة البقرة ٢٥
١٦- تفسير القرطبى ٢٠٧
١٧- تفسير الكشاف ٢/٢٦٢
١٨- الاشارة إلى الإيجاز ٦٧
١٩- سورة ص١٢
٢٠- حاشية الشهاب ٧/٣٠٠
٢١- سورة المد٤
٢٢- تفسير الكشاف ٤/٢٩٧
٢٣- تفسير القرطبى ٧٣٣

٢٤- التورين: التحرين والإثارة
٢٥- حاشية الشهاب ٨/ ٤٦٠
٢٦- سورة الحديد ٤
٢٧- سورة البقرة ١٧٢
٢٨- سورة الرحمن ٧
٢٩- سورة الضحى ٦
٣٠- سورة الشرح
٣١- سورة البقرة ٢٢٨
٣٢- تفسير الكشاف ١/ ٣٦٤
٣٣- براجع الأطول ٢/ ١٦٩
٣٤- دلائل الإعجاز ٤٤
٣٥- ينظر [كناياتِ الأدباء - الايضاح٨٢- بديع القرآن ٥٣ - تحرير التحبير ١٤٣- شروح التلخيص ٤/ ٢٣٧
٣٦- راجع دلائل الاعجاز ٤٤- مفتاح العلوم ١٨٩
٣٧- الطراز ١/ ٣٦٤، ٣٧٥، ٢٧٦
٣٨- حاشية الدسوقى ٤/ ٢٣٨
٣٩- عروس الافراح للسبكى
٤٠- ينظر القرآن إعجازه وبلاغته ١١٨
٤١- الأطول ٢/ ١٩٦
٤٢- لسان العرب.
٤٣- الأطول ٢/ ١٩٦ -الأطول٤٢٦
٤٤- ينظر الإشارة إلى الاعجاز٧٦
٤٥- سورة المائدة ٨٧
٤٦- ينظر المصدر السابق.
٤٧- سورة المائدة ٦
٤٨- سورة الاحزاب ٥٦

٤٩- ينظر المجاز ٢/١٠٨٦
٥٠- المجاز ٢/٦٨٣
٥١- ينظر أصول فخر الاسلام ٢/٩٣
٥٢- سورة النساء٢٢
٥٣- سورة البقرة١٨٦
٥٤- سورةالبقرة٦٨
٥٥- سورة الكهف٢٨
٥٦- بدائع الفوائد ١/٣